رفاعة

قَدْ قِيلَ ما قيلَ إن صِدْقاً وإن كَذِباً فما اعتذارك من قَوْلٍ إذَا قِيلَ

أبرز الرموز الواردة فى فصل رفاعة ومعانيها :

م	الرمز	الرمز
١	رفاعة	عيسى عليه السلام
٢	عَبْدَة	مريم رضى الله عنها
٣	شافعى	يوسف النجار
٤	صخرة هند	مكان التتويج بالرسالات عند المؤلف ؟
٥	زكى - حسين - على - كريم	رمز لجماعة الحواريين
٦	العفاريت	الكفر والمعاصى والشرور
٧	الدواء	المواعظ والهداية
٨	المرضى	العصاة والكفرة

obeikandi.com

رفاعة
توطئَة

نهج مؤلف رواية « أولاد حارتنا » فى الحديث عن رفاعة - عيسى عليه السلام - نَهْجه فى الحديث عن أدهم - آدم - وجبل - موسى عليهما السلام - فالرمز هو وسيلته المفضلة فى التعبير ، ثم تدخُّل الخيال فى تصوير الوقائع التى لها أصل فى التاريخ الدينى النبوى ، مضافاً إلى هاتين الوسيلتين وسيلتان آخريان شاع ورودهما فى بناء الرواية كلها ، وهما : الحذف ، والإضافة : مرة يحذف من الواقعة ما هو منها ، ومحفوظ عند الناس ، ومرة يضيف إلى الواقعة ما ليس منها ، وما لذلك من باعث عند المؤلف الأُستاذ نجيب محفوظ إلا التمويه والتشويش على القراء ، حتى لا يفطنوا إلى « خباياه » التى كانت تسيطر عليه وهو يخط روايته « أولاد حارتنا » السيئة السمعة لدى السواد الأعظم من أهل العلم والمثقفين ، ومن خلال هذه الوسائل التمويهية استطاع أن يقوم بطرح « إسقاطات » تعبر عن رأيه فى « قيمة التاريخ الدينى النبوى » أو فى بعض مواقفه ، ولو كان قد كتب الرواية بلغة واضحة وصريحة لما تسنَّى له أن يبوح بكلمة واحدة فيها إساءة إلى كبار أولاد الحارة الذين « سجَّاهم » برموزه وحيله التعبيرية الماكرة .

وها نحن أولاً نكشف القناع عن « رفاعة » لنرى عيسى ابن مريم رسول الله ، ولسان حاله يقول : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِى بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًا ﴾ .

● **الأدلة** :

الدليل الأول – التناسق الوجودى :

رتب مؤلف رواية « أولاد حارتنا » الحديث عن التاريخ الدينى النبوى على أساس الترتيب الوجودى الزمنى للرُّسُل الكبار الذين تحدث عنهم .

فبدأ بأدهم ، وهو فى الرواية آدم أبو البَشرية عليه السلام .

ثم بجبل ، وهو فى الرواية موسى أكبر رُسُل بنى إسرائيل عليه السلام .

وفى هذا الفصل يتحدث عن « رفاعة » ، وهذا التناسق دليل أول على أن « رفاعة » هو عيسى ابن مريم عليه السلام .

الدليل الثانى – اعتزال مريم وعودتها بعد الإنجاب :

فى القرآن الأمين وردت لمحة عن اعتزال مريم أُم عيسى ، عن أهلها ، حيث أقامت بعيداً عنهم للتأمل والعبادة ، فأرسل الله إليها رسولاً نفخ فى « جيبها » أى فتحة ثوبها من أعلى مما يلى الصدر ، فحملت بعيسى عليه السلام ، ثم لما وضعته عادت إلى أهلها ، فكان ما كان من استنكارهم لحملها وولادتها . وفى ذلك يقول الحق جل فى علاه :

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً * قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنْتَ تَقِياً * قَالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِياً ﴾ (١) .

ثم قال فى مرحلة ما بعد الوضع :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً * يَا أُخْتَ

---

(١) مريم : ١٦ – ١٩

هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ (١) .

❊ ❊

● **الواقعة فى الرواية :**

بدأ مؤلف رواية « أولاد حارتنا » الأُستاذ نجيب محفوظ حديثه عن « رفاعة » أو عيسى عليه السلام بواقعة الاعتزال التى ذكرها القرآن الأمين ، ثم العودة إلى أهلها .

ولكنه - أى المؤلف - مع حرصه على الاستفادة من هذه الواقعة ، كان أشد حرصاً على عرضها فى نسق مختلف عن النسق القرآنى الحكيم المطابق للواقع .

فجعل الاعتزال هجرة من الحارة إلى موضع صخرة هند ؟!

وجعل المعتزل أو المهاجر اثنين لا واحداً : عبدة التى رمز بها إلى مريم البتول أُم عيسى عليه السلام ؟

وشافعى الذى رمز به إلى يوسف النجار كفيل مريم .

وجعل الحمل برفاعة أو عيسى ، وهو المقصود ، تم فى الحارة قبل الاعتزال أو الهجرة ؟

وجعل العودة من المعتزل أو المهجر بعد أن صار رفاعة صبياً مميزاً لا طفلاً فى المهد ؟

---

(١) مريم : ٢٧ - ٣١

وأهمل مجئ الرسول إليها وبشراه إياها بالغلام الزكى ، وتمنيها الموت حين ولدت ، وإمدادها بالتمر وهى فى عزلتها .

وإليك نُبذاً من كلامه الخيالى :

« أوشك الفجر أن يطلع ، وآوى إلى المضاجع كل حى . . واستقر الظلام . . وفى رعاية الصمت الشامل ، فتح باب ربع النصر بحى آل جبل - قوم موسى - فى حذر شديد ، فتسلل منه شبحان ، سارا فى سكون نحو البيت الكبير ، ثم تابعا سوره العالى إلى الخلاء . . وجعلا يتلفتان وراءهما . . ليطمئنا إلى أن أحداً لا يتبعهما . . . كانا : رجلاً فى أواسط العمر ، وامرأة شابة حبلى ، وعند الصخرة - أى صخرة هند - تنهدت المرأة وقالت بإعياء : عم شافعى تعبت ؟ فتوقف الرجل عند المسير وقال فى غيظ :

استريحى ، ربنا يُتْعبُ المتعب » (١) .

غنى عن البيان أن هذه الفقرة تشير إلى عزلة مريم عن أهلها ، ولكن بطريقة رمزية غالطة .

أما العودة إلى الأهل فيشير إليها مؤلف أولاد الحارة بقوله :

« قامت عبده - يعنى مريم - تناول كفها فى يده - أى يد شافعى - وسارا نحو الجنوب ، نحو سوق المقطم . قالت عبدة بفرح تألق فى عينيها وثغرها :

« ها هى حارتنا ، وها نحن نعود إليها بعد غربة ، فالحمد لله رب العالمين » (٢) .

هذه الطريقة التى صورت فيها رواية « أولاد حارتنا » عزلة مريم عن أهلها ثم عودتها إليهم ، فيها - كما ترى - تزوير وتمويه . وحسبنا - نحن - ورودهما - العزلة والعود - فى الرواية على أى نحو كانا ، فإن دلالتهما على أن رفاعة فى الرواية هو عيسى ابن مريم شديدة الوضوح .

---

(١) أولاد حارتنا ص ٢١٣ (٢) أولاد حارتنا ص ٢١٧

● **الدليل الثالث - الحب والسلام :**

يصف الكاتب رفاعة بأن غايته فى الحياة كانت الحب والسلام ، وقد شاع بين الناس إضافة خاصية لكل رسالة من الرسالات الثلاث :

اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، فخصوا رسالة موسى بالقوة ، وخصوا رسالة عيسى بالسلام ، وخصوا الإسلام بالعدل ، وهذا فهم مغلوط ، فالرسالات السماوية كلها رسالات قوة وسلام وعدل ، ونحن - هنا - تصيدنا هذا الدليل من الرواية على أن رفاعة فى « أولاد حارتنا » هو عيسى عليه السلام ؛ لأن مؤلف الرواية إنما وصف رفاعة بالحب والسلام متكئاً على ركيزتين :

إحداهما : ما أشرنا إليه من الفهم المغلوط الشائع بين الناس .

والثانية : أن الأناجيل التى بين يدى النصارى - الآن - تكثر من الأقوال والأفعال المنسوبة إلى عيسى عليه السلام ، وترشح لهذا الوصف مثل :

« من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ؟!

ومثل : « باركوا لاعنيكم » .

ولو صح هذا لكان إبطالاً لشرعية القصاص فى التوراة .

اللَّهُمَّ إلا إذا كان عيسى عليه السلام يشير إلى « العفو » وهو مباح للمعتدى عليه فى جميع الشرائع .

ومما ذكره المؤلف عن وصف عيسى أو رفاعة بالحب والسلام قوله منسوباً إلى رفاعة :

« فملت إلى رأى أمى إيثارها الحب والسلام » [1] .

---

(١) أولاد حارتنا ص ٢٣٠

obeikandl.com

وقوله : « لا تفكروا فى العراك ، فإن الذى يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سَفْك دمائهم » (١) .

● الدليل الرابع - العزوبة :

المعروف من سيرة عيسى عليه السلام أنه لم يتزوج ، وقد سجل مؤلف الرواية « أولاد حارتنا » هذا السلوك منسوباً إلى رفاعة ، وهو عيسى فى الرواية كما تقدم .

فقد ساق المؤلف حواراً جرى بين رفاعة من جهة ، وشافعى وعبدة ، وهما والدا عيسى فى الرواية ؟

وكان موضوع الحوار رغبة « والديه » فى تزويجه وهو يُصر على عدم الزواج ، رغم أن « والديه » حدَّدا له العروس ، والبيت الذى سيصاهره ، وهو من آل جبل - قوم موسى - وقالا له :

إن مصاهرة آل جبل دعاء مستجاب بالتأكيد (٢) .

ولا يقدح فى هذا دليلاً على أن رفاعة فى الرواية هو عيسى عليه السلام أن الرواية نسبت زواجاً لرفاعة بامرأة اسمها « ياسمينة » لأن هذا الزواج كان صورياً تعطَّلت فيه الواجبات الزوجية « الخاصة » من طرف واحد ، هو رفاعة (٣) .

* *

● الدليل الخامس - الاختفاء الأول :

ومن المعروف من سيرة عيسى عليه السلام أنه اختفى مرة عن والدته فبحثت عنه فى كل مكان فلم تجده ، وقد حرص مؤلف الرواية على الاستفادة من هذه الواقعة ، فأوردها وهو يتحدث عن رفاعة (٤) .

---

(١) أولاد حارتنا ص ٢٨٣ (٢) أولاد الحارة ص ٢٤١
(٣) أولاد الحارة ص (٢٧٧) . (٤) أولاد الحارة ص ٢٣٨ - ٢٤١

ومما تجدر الإشارة إليه أن عيسى عليه السلام اختفى عن أُمه مرتين فى حياته . هذه أولاهما ، أما الاختفاء الثانى ، فكان فى آخر حياته ، وسيأتى الحديث عنه بإذن الله .

❊ ❊

● الدليل السادس - التتويج بالرسالة :

وهكذا يصعد المؤلف الأُستاذ نجيب محفوظ من « السفح » إلى « القمة » فى رسم شخصية عيسى التاريخية ، فمن اعتزال أُمه واتخاذها حجاباً إلى تلقى عيسى - عليه السلام - الرسالة السماوية .

وقد عرفنا من قبل أن المؤلف اعتاد أن يرمز إلى تلقى الوحى بالرسالات السماوية ، اعتاد أن يرمز إلى هذا المعنى الجليل بأن لقاءً تم بين « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية ، وبين من يختاره رسولاً كما حدث فى الفصل السابق « جبل » .

وقد سلك هذا المسلك نفسه فى تتويج عيسى بالرسالة مرموزاً إليه بـ « رفاعة » .

❊ ❊

● الواقعة فى الرواية :

يصور المؤلف واقعة تتويج عيسى بالرسالة فى حديث جرى بين رفاعة وأبيه ؟ (١) :

« أمس عقب خروجى من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطلاق ، فقصدت الخلاء ، مشيت فى الظلام حتى تعبت ، ثم اخترت مكاناً أسفل البيت الكبير المشرف على الخلاء ، فجلست مُسْنِداً ظهرى إلى

---

(١) ليس لعيسى أب كما هو معلوم ، وإنما جارينا المؤلف فيما قال ، لأننا ننقل كلامه مهما كان فيه من بُعْدٍ عن الواقع .

السور . . سمعت صوتاً غريباً يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه فى الظلام ، فدهمنى شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوى . . فقال أبوه : صوت الجبلاوى ؟ ما الذى حملك على هذا الظن ؟

فقال رفاعة بحرارة :

ليس ظناً يا أبى ، سيجيئُك الدليل ، وقد قمت حال سماعى الصوت ، فاستدرت نحو البيت ، وتراجعت إلى الوراء لأتمكن من رؤيته ، ولكنى لم أر إلا ظلاماً ، فقال أبوه : الحمد لله .

فقال رفاعة : « صبراً يا أبى : سمعت الصوت وهو يقول :

« أما جبل ، فقد قام بمهمته ، وكان عند حسن الظن به ، ولكنَّ الأُمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه ، فقال أبوه : ما أكثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً ؟

فقال رفاعة : « ولكنى أنا سمعت يا أبى » فقال أبوه : لعله أحد كان راقداً فى الظلام ؟

قال رفاعة : « بل جاء الصوت من البيت » قال أبوه : كيف عرفت هذا ؟ فقال رفاعة :

« هتفت قائلاً : يا جدى ، جبل مات ، وخلفه آخرون [1] ، فمد إلينا يدك » قال شافعى :

الله أسأل ألا يكون أحد سمعك ، فقال رفاعة :

« جدى سمعنى ، وجاءنى صوته قائلاً : ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل ؟ والابن الحبيب مَنْ يعمل ؟ فسألته :

وما حيلتى حيال أُولئك الفتوات أنا الضعيف ؟!

---

(١) لعل المؤلف يقصد من « وخلفه آخرون » الأنبياء الذين بعثوا من بنى إسرائيل بعد موسى وقبل عيسى عليهما السلام .

فأجابنى : الضعيف هو الذى لا يعرف سرَّ قوته ، وأنا لا أحب الأغبياء » (١) .

وبهذا - فى الرواية - صار رفاعة - رجل الجبلاوى - أى صار عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل ، ومهمته - كما سيأتى - تخليص الناس من « العفاريت » أى الشرور المغروزة فى طباع أولاد الحارة ؟

أرأيت كيف حرص المؤلف على الرمز أو الإشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام ، بعد أن دثره بـ « عباءة » رفاعة ، ليخفى ملامحه الحقيقية على قراء « أولاد حارتنا » ؟!

ثم أرأيت كيف طمس المؤلف ملامح الواقعة نفسها وجعل « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية هو بنفسه يكلم عيسى عليه السلام ؟ والله لم يكلم عيسى ، وإنما أنزل عليه الإنجيل بواسطة جبريل سفير السماء إلى رُسُل الله وأنبيائه الكرام ؟

إلى هذا الحد يُلوِّن المؤلف وقائع التاريخ الدينى النبوى بخياله كما يحلو له التلوين ؟!

وسائل تعبيرية ماكرة يخفى وراءها المؤلف « جوانياته » لئلا يشتم رائحتها أحد ، هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى ليتسنَّى له « إسقاط رؤاه » فى التاريخ الدينى النبوى ، مهما كان فى تلك الرؤى من جناية على جلال الموضوع الذى يترسم خطاه خطوة خطوة ؟!

وما أصدق الشاعر الذى قال :

إن الكـــلام لفى الفؤاد وإنما جُعِل اللسان على الفؤاد دليلاً

---

(١) أولاد حارتنا ص ٢٤٧ - ٢٤٨

● **الدليل السابع – إبراء المرضى والمعلولين :**

لكل رسول معجزات خارقة لقوانين العقل والعلم يجريها الله جلت قدرته على يد من يبعثه رسولاً إلى عباده ؛ لأن دعوى الرسالة أمر ذو خطر ، فهى أمر غيبى لا يطلع عليه الناس ، ولا يلزمهم تصديق من يدعى النبوة إلا إذا أجرى الله على يديه واقعة أو وقائع لا تدخل فى مقدرة أحد من خلق الله ، فإذا أجرى الله على يد مدعى النبوة أمراً خارقاً للمعقول والمعلوم ، كان ذلك دليلاً على صدق دعواه ؛ لأنه بَشر ، والبَشر جميعاً عاجزون عن الإتيان بمثل ما أجراه الله على يديه ، فلو لم يكن رسولاً حقاً لما امتاز عنهم بما أُجرى على يديه .

وشاء الله أن تكون معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام أنواعاً :

- تكليم الناس فى المهد .
- إحياء الموتى بإذن الله .
- خلق الطير من الطين فيكون طيراً بإذن الله .
- شفاء الأمراض والعلل الجسمية والنفسية .
- التنبؤ بشىء من الغيوب المكانية النسبية .

أى التى تكون فى مكان غير المكان الذى هو فيه ، وإنما أطلقنا عليه « غيب مكانى نسبى » للفرق بينه وبين الغيب الزمانى الذى يحدث فى المستقبل كالإخبار بما سيكون غداً ، و« نسبى » لأنه غيب بالنسبة لمن هو بعيد عن المكان الذى يوجد فيه الشىء ، وشهادة بالنسبة لمن هو فى المكان الذى به الشىء المخبر عنه .

وقد جاءت هذه الأنواع فى قوله تعالى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيَةٍ مِّن رَبِّكُمْ ، أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ

obeikandl.com

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وكل ذلك جرى بقدرة الله وعلمه على يد عيسى عليه السلام ، ليؤمن به من يؤمن على هدى وبصيرة ، ومن لم يؤمن فقد لزمته الحجة ، وهلك عن بينة .

* *

● **المعجزات فى الرواية :**

اختصرت الرواية هذه المعجزات كلها فى أمر واحد ، هو علاج المرضى من العفاريت ، وقد فهمنا أن المؤلف يرمز بالعفاريت إلى الكفر والمعاصى والشرور ، ولكن عرضه لم يتجاوز العمل العادى ، الذى يمكن أن يقوم به من يتقنه من الناس ، أما أن تفهم أن هذا العمل الذى كان يقوم به رفاعة يدل على شىء من المعجزات فلا ، فقد حرص المؤلف على الاكتفاء بعلاج الناس من العفاريت ، ولم يتطرق لأى نوع من المعجزات التى وردت فى القرآن مجراة على يد عيسى بإذن الله ، وهذا الحرص له باعث قد أشرنا إليه من قبل وهو « إخفاء » معانى الرموز بقدر المستطاع ؟

فإن كان الأُستاذ نجيب محفوظ يقدِّر فى نفسه - حين وضع هذه الرواية - أنه فِعْلاً سد طرق الفهم أمام القراء فقد وَهِم .

ومن أقواله فى هذه الوقائع :

« والحق ، أن رفاعة لم يلق فى عمره أسعد من هذه الأيام ، كان يُدْعى فى الحى الجديد بالمعلم رفاعة ، وكانوا يدعونه بها فى إخلاص ومحبة ، وعُرِف بأنه يخلص من العفاريت ، ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده ،

---

(١) آل عمران : ٤٩

وهذا سلوك نقى لم يعرف عن أحد قبله ، فلذلك أحبه الفقراء كما لم يحبوا أحداً قط » (١) .

ولا نمل القول : أن رواية « أولاد حارتنا » لم تتحدث هنا عن رفاعة ، إلا وهى ترمز به لعيسى عليه السلام ، ولن يدفع هذا الفهم تلك التمويهات والرموز التى تترَّس أو تدرَّع بها المؤلف ، وما أشبه حال المؤلف فى الرواية كلها بالحال التى خاطب صاحبها الشاعر الحكيم بقوله :

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا وبُكاك ، إن لم يجر دمعُك أو جرى

* *

الدليل الثامن - رفض بنى إسرائيل دعوة عيسى عليه السلام :

كان عيسى - عليه السلام - آخر رُسُل بنى إسرائيل ، وقد جاءهم بالبيِّنات من ربهم ، ولكنهم أعرضوا عنه ، وضاقوا به ، دبروا المؤامرات لقتله والقضاء عليه .

تُرى هل أهملت رواية « أولاد حارتنا » هذه الواقعة ؟ كلا ، ولكنها عرضتها - كعادتها - من وراء « جُدُر » لحاجة فى نفس يعقوب ؟

* *

● **الواقعة فى الرواية :**

حسبنا - توخياً للإيجاز - أن نثبت الفقرة القصيرة الآتية ؛ لأن فيها دليلاً ناصعاً على أن رفاعة فى الرواية هو عيسى ابن مريم عليه السلام .

فى حديث اختلقته الرواية جرى بين رفاعة وياسمينة التى ملَّت عمل رفاعة ، قال لها :

« إنك من آل جبل ، وكلهم أبى أن يُسَلِّم لدوائى ، حتى أبى نفسه » (٢) .

---

(١) أولاد حارتنا ص ٢٦٧ .

(٢) أولاد حارتنا ص ٢٦٧ ، ودواء عيسى - هنا - المواعظ والهداية إلى الله .

الدليل التاسع – الحواريون :

حواريُّو الإنسان هم الأوفياء المخلصون له ، وخاصته من الناس ، واشتهر هذا « المصطلح » مضافاً إلى عيسى عليه السلام ، لأن الذين آمنوا بدعوته وصفوا له ولازموه حال حياته بين الناس كانوا قلة لا يزيدون على اثنى عشر من الشباب ، وقد خلَّد ذكرهم القرآن فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى ، قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

* *

● **الحواريون فى الرواية :**

لم يفت مؤلف « أولاد حارتنا » أن يورد مسألة الحواريين فى الفصل الذى عقده لرفاعة ؛ لأن رفاعة فى « جوانيَّات » المؤلف هو عيسى ابن مريم رسول الله إلى بنى إسرائيل ، لكنه جعلهم أربعة فقط اصطفاهم من جملة المرضى الذين عالجهم وطهرهم من « العفاريت » ، وفى ذلك يقول :

« واصطفى رفاعة من مرضاه أربعة وهم : زكى وحسين وعلى وكريم ، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة . . كان على برمجياً ، وكان حسين مدمن أفيون لا يفيق ، وعلى يتدرب على الفتونة وكريم قواداً ، فانقلبوا رجالاً ذوى قلوب كبيرة ، وكانوا يجتمعون عند صخرة هند (٢) ، حيث الخلاء والهواء النقى ، فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء . . . » (٣) .

إن حرص المؤلف على الإشارة إلى جماعة الحواريين ، لدليل من أقوى الأدلة على أن :

---

(١) المائدة : ١١١

(٢) مرة أخرى ليحتفظ القارئ باسم « صخرة هند » ، وسنعود إليها فى الفصل القادم .

(٣) أولاد حارتنا ص ٢٦٨

obeikandl.com

● رفاعة فى الرواية هو عيسى عليه السلام ، كما كان أدهم آدم وجبل موسى . هذا من جهة .

● ومن جهة أُخرى فإنه لا يتكلم عن « حارة » ، ولكن عن الدنيا ولا يتكلم عن أحداث حارة ، ولكن عن التاريخ الدينى النبوى منذ بدأ ، وحتى انتهى بخاتم المرسلين .

وهذا هو المطلوب لنا من هذه الدراسة السريعة لأولاد الحارة .

* *

الدليل العاشر - الاختفاء الأخير :

لما ضاق الخناق على عيسى عليه السلام ، وتكالب على الكيد له أشقياء بنى إسرائيل ، وأوغروا عليه صدور الرومان أصحاب السُّلْطان السياسى ، وذوى النفوذ والغلبة ، ونما إلى سمعه ما دبروه من مؤامرات ضده وضد حوارييه ، قرر عليه السلام أن يأخذ بأسباب الحيطة ، والله يفعل ما يريد ، فاختفى للمرة الثانية ، لكن لا عنْ أُمه فى هذه المرة ، بل عن الناس جميعاً إلا خاصته الأوفياء ، ولأن الله أراد أمراً كان مفعولاً ، فإن واحداً من حوارييه دلَّ أعداءه على المكان الذى هو فيه ، ثم عاد إلى صحبته لعيسى وحوارييه العشر الآخرين .

ولما داهم الأعداء المكان حببَّ الله إلى « الخائن » أن يفتح لهم الباب ، فألقى الله شبهه - أى شبه عيسى - عليه فقتلوه ثم صلبوه ظانين أو معتقدين أنهم قتلوا عيسى وصلبوه ، ونجىَّ الله عيسى من كيدهم ، والله غالب على أمره :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ، وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ

لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَلْ رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (١) .

❊ ❊

● **الواقعة فى الرواية :**

عودتنا رواية : « أولاد حارتنا » تشويه سيرة الرُّسُل الذين ورد ذكرهم فيها . وفى هذه الواقعة كان نصيب الخيال جامحاً .

فالحواريون أربعة لا اثنا عشر ، والذى دلَّ على المكان الذى اختفى فيه عيسى وحواريوه امرأة لعوب « ياسمينة » التى زوجتها الرواية لعيسى من قبل ، وأن هذه المرأة كانت « جاسوس » للأعداء ترصد تحركات عيسى ، وتنقلها سراً لخصومه ، وأن الأعداء تمكنوا فِعْلاً من قتل عيسى ، أو رفاعة حسب رمز الرواية (٢) .

والمؤلف مسلم مطلع على القرآن الأمين ، بدليل أن الوقائع التى ذكرها مستوحاة من القرآن الكريم ، اللَّهُمَّ إلا ما كان مصدره خيال المؤلف .

لذلك فإننا نعجب - وخالق السموات والأرض - من صُنْع المؤلف الأستاذ نجيب محفوظ ، لأنه جزم بأن عيسى قُتِل فِعْلاً ، مع أن فى هذا الجزم تكذيباً لما ورد من خبر الله الصادق ، وإنها - وربى - لكبيرة من أشنع الكبائر أن يخبر الله فى كتابه المصون بخبر ، ثم يعتقد « مسلم » خلافه مع علمه بأن الله أخبر به ؟!

فالمؤلف - المسلم - يضرب بكلام الله عُرْض الحائط ، ويدير ظهره لعقيدة المسلمين المجمع على صحتها وصدقها ، ويجارى أهل الكتاب - النصارى - فى عقيدتهم « قتل عيسى وصلبه » مع تكذيب القرآن الواضح لهذا الاعتقاد ؟

---

(١) النساء : ١٥٧ - ١٥٨ ، وعلماء المسلمين منهم من قال : رُفع عيسى حياً ، ومنهم من قال : توفاه الله ثم رفعه . (٢) أولاد الحارة ص ٢٩٢ - ٣٠٠ ملخصاً .

أليس ذلك موقعاً فى الحيرة ، داعياً إلى سوء الظن بالمؤلف - المسلم - الأُستاذ نجيب محفوظ ؟!

* *

● **اعتذار مرفوض :**

قد يُعْتَذَرُعن المؤلف بأنه يكتب فنّاً لا سيرة ولا تاريخاً ؟

ونبادر فنقول :

إن إخضاع موضوع التاريخ الدينى النبوى للعمل الفنى مغامرة غير مأمونة العاقبة ؛ لأن الفن يعتمد على الخيال ، ويتلون بلون عواطف كاتبه ، والأُستاذ نجيب محفوظ لَمَّا أخضع هذا الموضوع الخطير للعمل الفنى وقع فى « محاذير » أو « محاظير » لا تكاد تُحصى ، والذى أشرنا إليه منها غيض من فيض تعج به روايته الآثمة حقاً ، فقد بدَّل وغيَّر فى مواقف الرُّسُل متعمداً ، وأسند إليهم تصرفات لم يفعلوها ، وأقوالاً لم يقولوها ، ووصفهم مرات بأوصاف مزرية هم أبعدُ عنها بُعْدَ السماء عن الأرض ؟! بل لم يتورع من وصف « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية بأوصاف البَشر :

فله صاحبة ، والعياذ بالله - وله ولد ، وله خدم وهو الغنى الحميد ، كما أطلق ألسنة « شخوصه » لشتم الجبلاوى ، وهو فى الرواية (الله) وشتم أدهم ، وجبل ورفاعة وقاسم ، وهم - وفاطر السموات والأرض - : آدم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، فما كان أغناه وأغنى قراءه عن « الخوض فى النار » من أخمص القدم حتى فروة الرأس ؟

ولم يكن « الفن » يوماً ، ولن يكون أبداً - مبيحاً لانتهاك الحرمات وإهانة المقدسات ، والتطاول على القِيَم العليا ، وإن ادعى ذلك الجاهلون الحمقى من دعاة الحداثة ، وأعلاج الشيوعية ، وببغاوات العلمانية فى مصر والعالَم العربى .

فالفن - قولاً كان أو فعلاً - كسب أو اكتساب ، وكل امرئ مسئول عن كسبه واكتسابه مهما كبر أو ضؤل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) .

❊ ❊

الدليل الحادى عشر - رَفْعُ الله عيسى إليه :

لما نفى الله - وهو العليم الخبير - قَتْلَ عيسى وصلبه فقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ . . ﴾ ، قال : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ . . ﴾ ، فالرفع حقيقة قرآنية راسخة ، ولا خلاف فيها عند علماء المسلمين ، ولكن الخلاف - كما تقدم - فى صفة الرفع ، أرُفِعَ حياً أم متوفياً ؟

❊ ❊

● **الرفع فى الرواية :**

قال مؤلف رواية « أولاد حارتنا » فى الرمز إلى الرفع : « وتناقلت الحارة قصة رفاعة على حقيقتها التى كان يجهلها الأكثرون ، وتنوقل أيضاً أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء ، حتى حملها الجبلاوى بنفسه ، فواراها التراب فى حديقته الغنَّاء » ؟! (٢) .

ثم عاد فقال مصرحاً بالرفع :

« . . وبخاصة رَفْعُ الجبلاوى لجثته ودفنها فى حديقته الغناء » (٣) .

الأدلة السابقة ، الأحد عشر دليلاً ، ظفرنا بها من حديث المؤلف عن رفاعة أو عيسى عن حياته ، بدءاً من وهو جنين فى بطن أُمه حتى آخر لحظة من حياته بين الناس .

---

(١) المدثر : ٣٧ (٢) أولاد حارتنا ص ٣٠٣

(٣) أولاد حارتنا ص ٣٠٤

obeikandi.com

وفى هذه الأدلة غناء ، وأى غناء ، فى معرفة من هو رفاعة فى رواية « أولاد حارتنا » ؟

إنه ، وقيوم السموات والأرض ، عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم البتول رضى الله عنها .

وبقى لنا دليل آخر من حديث المؤلف عن الآثار التى ترتبت على وجود عيسى عبداً لله ورسولاً إلى بنى إسرائيل ، رصد المؤلف فى إيجاز تلك الآثار ، وهذا الرصد وصف مكمل لشخصية عيسى عليه السلام ، ليحل محل رفاعة ويزول رفاعة حتى عن الأوهام ، تلك القشرة « الهشة » التى ألقاها المؤلف على وجه عيسى عليه السلام ، وكأنه فى حفلة « تنكرية » من بدع العصر الحديث .

* *

الدليل الثانى عشر - الآثار التى ترتبت على رسالة عيسى :

الآثار التى ذكرها المؤلف ، الذى يهمنا منها هو الآتى :

أولاً : ظهور النصرانية جنباً إلى جنب مع اليهودية ، وقد رمز المؤلف لهذا بظهور « حى الرفاعيين - أى النصارى - والاعتراف بهم » .

ثانياً : ذيوع ذكر عيسى عليه السلام وترديد قصته على كل لسان حتى صار أغنية للرباب - يعنى شعراء الرباب - وهم رمز - كما تقدم - للرواة والقصصيين الدينيين .

ثالثاً : رفعُ عيسى إلى الجبلاوى اشتهر بوجه خاص وأجمع عليه النصارى [1] .

---

(١) لست أدرى لماذا خص النصارى بهذا الإجماع مع أنه عقيدة المسلمين مع الاختلاف فى صفة الرفع ، اللّهم إلا إذا كان عذره أن المسلمين تأخر وجودهم عن النصارى فى بداية الأمر .

obeikandl.com

رابعاً : إجماع النصارى على تأليه أُم عيسى ووجوب تقديسها ، على أن المؤلف يضم إليها فى هذا التقديس « شافعى » الذى جعلته الرواية أبا لعيسى مع علمها - أى الرواية - ببطلان هذا القول . وربما جارى مؤلف الرواية بعض كُتَّاب الأناجيل الذين ينسبون - خطأً - عيسى إلى أبوة يوسف النجار المرموز إليه فى الرواية بـ « شافعى » وهى مجاراة مخطئة .

خامساً : الرهبانية التى ابتدعها بعض النصارى الأولين محاكاة لعيسى عليه السلام فى العزوبة .

سادساً : اختلاف النصارى حول :

هل تظل المسيحية اتجاهاً روحياً عازفاً عن مظاهر الحكم والسلطان : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، وهى عبارة يروونها عن عيسى عليه السلام ، ولا سند لها ، والأغلب أنها من كلام بولس الرسول ، وإليه يرجع جُل الأسرار الكنسية والطقوس المعمول بها الآن ، حتى ليعتبر بولس هذا هو مؤسس المسيحية لا المسيح نفسه ، أم تنطلق المسيحية لتشمل كل مرافق الحياة من التمتع بالملذات والاهتمام بالحكم والسلطان ، وأن « قيصر » ليس له مع الله شركة فى الوقف ، أو شئون الحياة [1] .

وبهذا تتجلى صورة السيد المسيح عليه السلام بكل وضوح ، فالسيرة سيرته ، والأوصاف أوصافه ، حتى الاسم الرمزى يحمل شحنة هائلة من سماته وقسماته الوضيئة .

فرفاعة مشتق من الرفع ، والرفع ورد صريحاً فى أصدق الكلام : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ ﴾ .

﴿ إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَىَّ . . . ﴾ [2] .

---

(١) أولاد الحارة ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ملخصاً . (٢) آل عمران : ٥٥

وكما كان أدهم آدم بزيادة « الهاء » فى الرمز ، وحذف إحدى الهمزتين فى الصدر .

وكما كان موسى « جبل » مستوحى من جبل الطور الذى كلمه عنده ربه .

وكما سيكون محمد « قاسم » لأنه « أبو القاسم » .

وخلاصة هذا البحث هنا نصوغها فى كلمة واحدة نتوجه بها إلى القارئ ، فنقول :

« ارفعْ رفاعة يظهرْ عيسى » .

❊ ❊ ❊

obeikandl.com